الفصل السابع

أرواح الأسلاف[1]
Ancestral Spirits

تعتقد الشعوب البدائية في كثير من أنحاء العالم في الأسلاف ويخافون منها ويحاولون استرضاءها بتقديم القرابين والضحايا. وعلى الرغم من اعتقادهم أن أروح الأسلاف ذات طبيعة متمايزة عن أرواح الأحياء، إلا أنهم يعتبرونها كامتداد طبيعي لحياتهم، وأنها قد تجلب لهم الخير والشر. ومن هنا جاء تقديسهم لها وممارسة الطقوس والشعائر نحوها، فهي كائنات مقدسة ومسيطرة يعملون على استرضائها بين الحين والآخر، حيث يلتقي الأحياء بالأموات[2] دوماً في علاقات مودة وكراهية، إذ ينظر إلى أرواح الأسلاف كما لو كانوا أعضاء في الجماعة القرابية ويدركون أهمية الدور الذي تلعبه في رفاهية العائلة، فإذا ما غضب الأسلاف فإن الفشل سيلحق بهم ويتعثروا في حياتهم وقد تصيبهم حوادث خطيرة أو أمراض أو يلحق بهم الموت...

---

[1] يذهب تايلور إلى أن عبادة الأسلاف والأوثان والسحر نشأت من الاعتقاد بأرواح الآباء والأجداد، والذين كانوا يمثلون رؤساء لأسراتهم وبيدهم مقاليد الأمور لأنهم أكثر خبرة ودراية بشؤون الحياة كالصيد والقنص والحماية من الكوارث... فإذا ماتوا فإن أرواحهم ترفرف في سماء الأسرة لتقيها شر النوائب، ومن ثم يصبح من الأرواح الطيبة التي يجب التوسل إليها والاستعانة بها... إن الأحفاد يعبدون أرواح أجدادهم... أما المرض والجنون والشلل وغير ذلك من الأمراض العصبية والعقلية فمن الأرواح الخبيثة.

[2] طبيعي أن تختلف النظرة إلى الموت وبالتالي المشاعر المترتبة عليه بين أولئك الذين ينظرون إلى حياة الأسلاف كما لو كانت امتداداً لحياتهم، وأن هؤلاء الأسلاف ما زالوا مؤثرين في الحياة العائلية، وبين مشاعر أولئك الذين ينظرون إلى الموت كما لو كان انقطاعاً نهائياً للحياة. (د. فاروق إسماعيل، تأثير الإسلام على الوثنية، مرجع سابق، ص77).

وعبادة الأسلاف هذه سمة مميّزة للكثير من المجتمعات الإفريقية والآسيوية وأمريكا اللاتينية. فمثلاً نجد عند قبائل *LoDagaa* شمالي غانا (1962) أن الابن الأكبر هو الذي يتولى المبادرة بعبادة روح أبيه المتوفى، وحيث تقدم الأضحيات والقرابين من خلال الممارسات الشعائرية. في مناسبات خاصة، أو كما هو الحال حين تحمل المرأة طفلاً إنما تنحر دجاجة على مقام سلفها وحتى يتدفق أو ينساب اللبن في ثديها، وعندما يصيب أحدهم حظاً وفيراً في محصول أو نجاح في صيد فإن الشكر يرد إلى أسلافه وغالباً ما يكون جده من ناحية الأب، فإذا فشل في أن يعبِّر عن شكره على هذا الدعم أو المساندة ربما يعاقب، وقد يصادف حظاً عاثراً أو مرضاً أليماً أو يموت أحد أطفاله، وحتى يظل الفرد على علاقة طيبة بهؤلاء الأسلاف لا بد من الوفاء بالتزامه كالمشاركة في تقديم القرابين فضلاً عن اتباع القرارات والقواعد السلوكية التي وضعها هؤلاء الأسلاف (التعاون - تجنب الشقاق والخلاف، قبول وساطة كبار السن، عدم الزنا بالمحارم، التكفير بتقديم القرابين... إلخ). وكذلك الحال فيما يتعلق بديانة الـ *Qaba* في منطقة *Transkei* في جنوب إفريقيا والتي درستها *J. Broster*، حيث تذكر على لسان إحدى إخباريها وتدعى *Anna* أن لديهم إلهاً اسمه *Thixo* ولكنها لا تعرفه، إنها تعرف أرواح الأسلاف *Izinyanga*، إنهم يعيشون بالقرب من الله والبشر، وإذا لم تحاول إرضاءهم فسوف يجعلون حياتها صعبة فقد تمرض أو تلحق بها أحداث سيئة، وتقول *Anna*: «أنا لا أصلّي ولا أتحدث إلى الإله ولكن أرواح أسلافي تأتي في الأحلام وقد تأتي سعيدة كما حدث في الليلة الأخيرة عندما تحدثت معها وجهاً لوجه (مع روح جدتي لأمي)، وفي أوقات أخرى تأتي متجهمة وقد تخبرني أنها جائعة وتريد لحوماً، بل وتصف الحيوان الذي تريده حتى أقدمه لها على سبيل القربان، وسواء أكان ماعزاً أو ثوراً فإنه يجب أن يكون أنثى، فإذا جاءت العائلة واجتمعت على وليمة فهذا يجعل الروح سعيدة لأنها تدرك أننا نحبه ونتذكره، ومن ثم تحقق لنا الصحة والعافية في أنفسنا وماشيتنا». وتضيف بروستر أن ثمة إيماناً عميقاً لديهم بأن أرواح أسلافهم هي المسؤولة عن سعادتهم وشقائهم[1]. وتذهب قبائل «الدوجون» *Dogon*

---

[1] **Joan A. Broster: Red Blanket Valley, p. 82.**

الإفريقية إلى أن أرواح الأسلاف هم الذين يحققون الحيوية والاستمرار لأبنائهم وأحفادهم، إذ يعتقدون أن الروح تظل هائمة بمسكن المتوفى حتى الذكرى الثانية لوفاته، فإذا تمت شعائرها وطقوسها تنتقل روح السلف حيث تهيم مرة أخرى في مرابع الآباء ثم تعود إلى أهلها فتمنح قواها الحيوية إلى مولود جديد. وأخيراً تتجه إلى الجنة ويسمونها *Manga* لتتمتع بالخلود الأبدي، وإذا كانت روح جد الأسرة سوف تحل في أحد الأحفاد فإن هذا سوف ينشئ موقفاً صعباً للغاية، إذ لا يليق أن يعيش الطفل مع أبيه أو جده تحت سقف واحد، إذ إن سلطانه سوف يتعارض مع سلطان الأب أو الجد، لذا فإنهم يحرصون على أن يربى الطفل بعيداً عن بيت الأسرة[1].

ولا يختلف الدنكا جنوب السودان من حيث نظرتهم إلى الأسلاف فعندما يموت أحدهم يقولون: «لقد جاءت به الآلهة وها هي قد أخذته»، إنهم يصلّون للآلهة والأرواح الأخرى كما لو كان المتوفى مستمراً في الوجود في مكان آخر، وأن روحه تظل تهيم حول قبره أو مسكنه ويبتهلون إليها أن تساعدهم وتحميهم من الأمراض والمصائب وتعينهم على الشؤون الدنيوية، إنهم يعتقدون أنها سوف تحل بأجسادهم وتساعدهم على الشدائد، وتحقق لهم ما يريدون، ثم لا تلبث أن تفارقهم، ومن ثم يستدرون عطفها من حين لآخر ويقدمون لها القرابين، يقولون: «يا أسلاف الأب الأعظم *Luol* يا أسلاف الأجداد أناديكم *Ayok*، أناديكم في صلواتي من أجل أن تدعمونا وتزورونا زيارة عابرة وتسمعون لنا فنحن أطفالكم». إن الإنسان إذا دعا آلهة الآباء فسوف تحقق له ما يريد، وهم يحرصون على ألا تغضب أرواح الآباء والأسلاف ويتذكرونها في كثير من مواقف الحياة اليومية ويقيمون لها الشعائر والطقوس كما يحدث في بعض حالات الزواج، حيث يتزوج الرجل من فتاة يتيمة الأب فإنه بالإضافة إلى المهر المتفق عليه من الأبقار يقوم بتقديم أضحية تسمى *Acama* ويمكن أن تكون ثوراً أو شاة أو ماعزاً إذا ما كان الزوج فقيراً معدماً ويعتقدون أن عدم تقديم هذا القربان للأب المتوفى سيؤدي إلى وفاة أرملته (أم العروس) إذا ما شربت اللبن من الأبقار التي دفعت كمهر لابنتها، بل تلقى حتفها إذا ما وطئت قدماها روث هذه الأبقار[2].

---

[1] هوبير ديشان: الديانات في إفريقيا السوداء، مرجع سابق، ص 27.

[2] د. فاروق إسماعيل: الأنثروبولوجيا الثقافية، ج1، الهيئة المصرية العامة 1980، ص 282-283.

وكذلك الحال عند هنود «المابوتشي» *Mapuche* (*Faron* 1961)، الذين يعيشون يتمركزون في وسط وجنوب تشيلي وجنوب الأرجنتين، فإنهم يعتقدون أن الأرواح تذهب إلى عالم خاص (عالم الموت) لتعيش في هدوء وسكينة ولكن يباح لها زيارة الجماعة القرابية بين الحين والآخر، وهم يرحبون بأرواح أسلافهم الأقوياء أولئك الذين كانوا يمثلون مكانة اجتماعية مرموقة ولكن عودة الأرواح الأخرى «الأقل في المنزلة والمكانة» أمر يخافونه، لأنها قد تقع في أيدي السحرة والمشعوذين لضعفها، والذين يستخدمونها في إلحاق الضرر بالآخرين، إنها قد تعود في الظلام لتسبب لهم سوء الحظ والمحنة والبلاء، تخلق القلق على النقيض من أرواح الأسلاف الأخرى المتعاونة والتي يسكبون الخمر تحية لمقدمها بين الحين والآخر.

وفي ثايو نجد أن معظم الأسر الصينية والريفية بصفة خاصة يحتفظون «بالمذبح» *altar* في الحجرة الرئيسية في منازلهم، حيث تثبت لوحات أسلاف العائلة، ولا يعني أنه بمثابة نصب تذكاري للميت، إنه مقر له، حيث يعامل الموتى كما لو كانوا موجودين بالفعل في هذه الحجرة، يسألونهم عندما يريدون اتخاذ القرار، يخاطبونهم عندما يتحدثون، يشاركونهم الطعام والشراب واللعب، بل وممارسة الشعائر والطقوس، وعلى الرغم من إدراكهم أنهم لا يستطيعون رؤيتهم، إلا أن حضورهم يستشعر كجزء من إيقاع الحياة اليومية. وتفيد المادة الأثنوغرافية التي حصل عليها د. فاروق إسماعيل من جبال «الأنقسنا» *Ingassana* شرقي السودان بأن الأنقسناوي يرتبط بأسلافه ارتباطاً وثيقاً، ومن ثم يلجأ إليها دوماً وإن كانوا يعتقدون أنها تذهب على جبلي «بونق» و«ليفر» وسرعان ما يستجيب الأنقسناوي لهؤلاء الأسلاف إذا ما جاء إليهم في أحلامهم، وأياً كان الأمر فإنه يفزع لمجرد رؤية السلف، ثم يهرع للبحث عن نوع من الترضية في محاولة لاستدرار عطفه وتأييده، وعادة ما يطلب هؤلاء الأسلاف ذبح ثور أو بقرة أو شاة أو كدروك «خنزير»، ومن ثم يلجأ الأنقسناوي إلى الكجور ليعرض عليه روايته وسرعان ما يحدد هذا الأخير نوع القربان الذي يجب أن يقدمه لأسلافه، وعادة ما ينحر القربان على قبر الميت، حيث يحرصون على تدفق الدم على القبر، حيث يأخذ الكجور ما طاب له في حين يترك البقية الباقية ليتناول منها المشاركون في الشعيرة. والجدير بالذكر أن الأنقسناوي

يخصص بيتاً للأسلاف، مسكن عادي يحتفظ بداخله وعلى جانب منه بالأشياء الخاصة بالميت، حيث يعلق نوع من الحصير في حبال ويضعون داخله ثياب الميت وأسلحته، وسرير من الخشب والحبال، كما يوجد في بعض منها آلة للعزف أشبه بالربابة، وعند مدخل بيت الأسلاف وإلى اليسار يوجد إناء عبارة عن «قرعة» بها بعض الزيت مرفوعة على حبل مثبت في الجدار.

وفي وسط البيت حفرة لإشعال النار ليلاً عند الغروب، وتترك النار لتنطفئ من تلقاء نفسها، ويعتقدون أن الأسلاف يترددون على بيوتهم هذه ليتدفؤوا بالنار ويتمسحوا بالزيت ويستريحوا على الأسرّة إن شاؤوا، كما يمكنهم استخدام ثيابهم الموجودة داخل الحصير... وقد جرى العرف أن يتذكر الأحياء أسلافهم في مناسبات خاصة كتلك التي تستخدم فيها المريسة والكسرة (نوع من الطعام)، إذ يتركون بعضاً منها لأسلافهم، وعندما يدخلون إلى بيت الأسلاف لا يثرثرون كثيراً، وقد يمتنعون عن الكلام، وفي أعياد (ساي يوينج) يحرصون على زيارة قبر المتوفى، وقد يقومون بتوزيع الكسرة على القبر ويحيونه مطالبين إياه أن يأتي لزيارتهم، هنا يحرصون على إشعال النار عند الغروب ووضع الكسرة والمريسة والماء فضلاً عن الأشياء المحببة إليه استعداداً لمجيئه في اليوم التالي[1].

وكذلك الحال لدى مواطنيهم من سكان «كورنجو» ***Korongo*** جنوبي كردفان، وعلى الرغم من عدم وجود فكرة الأسلاف بنفس الوضوح الذي وجدناه لدى الأنقسنا، إلا أنهم يشيرون إلى شجرة الأسلاف ومساكن الأسلاف في حياتهم اليومية، وإن كانت أفكارهم غامضة بعض الشيء، إلا أنهم يجمعون على أن هذه الشجرة التي تقع في منطقة «كلماجر» والتي يسمونها «أنجيكركاما مسلا» هي شجرة الأسلاف، وهم يترددون عليها بين الحين والآخر في أمسياتهم يتدبرون شؤون أحفادهم، كما أنهم يحتفظون في مسكنهم «بقطية صغيرة» أشبه بالحجرة التقليدية التي تسود في هذه المناطق بها فتحة مستديرة قطرها لا يزيد عن ثلاثين سنتمتراً، يعتقدون أن أسلافهم يترددون عليها بين الحين والآخر، ثم يضعون فيها إناء مملوءاً بالمريسة، وقد يتردد الكجور «كاسوللي» على بيوت الأسلاف هذه أياً

---

[1] د. فاروق إسماعيل: أثنوغرافيا الأنقسنا، ص 157 وما بعدها.

كانت مواقعها في حالة مرض أحد الأفراد ليقوم بممارساته للكشف عن المرض وأسبابه. ويتميز مسكن السلف لدى زعيمهم الديني هذا بما يحويه من أدوات مقدسة مثل «الكواكيب» أعمدة من الحديد و«الدكو» قطع من الحديد أيضاً، فضلاً عن قطع من القماش القديم وسكاكين ورماح، وأجراس، بالإضافة إلى كمية من العيدان المستقيمة المثبت بها أسلاك يسمونها بالمحلية «بالا»، ويزعم «كاسوللي» أنه ورث هذا البيت عن أجداده وأنه يذكر خاله «ميري» حين كان يعتكف فيه ليمارس طقوسه، وفي العادة يعتزل كاسوللي الأهل والأقارب إلى بيت السلف هذا حين يريد الاتصال بالإله «موسلا»، أو بأرواح الأسلاف وقد تأتي له الرؤى والأحلام وحين يستيقظ يحاول مع مساعديه تنفيذ تعليمات أرواح الأسلاف الصادرة إليه[1].

وإذا كانت أرواح الأسلاف تلعب دوراً مهماً في كثير من المعتقدات، إلا أن هناك مجموعات وثنية عديدة كالتيف في شمال نيجيريا، أولئك الذين لا يعرفون شيئاً عن عبادة أسلافهم هذه، لا شك أنهم يذكرون أسلافهم من خلال مراجعتهم لانحداراتهم الجينالوجية للبدنة أو العشيرة، ويذكر لنا ***P.Bohannan*** بوجود استثناء واحد يتمثل في أنه إذا كان هناك خلاف لم يتم تسويته، ثم مات أحد أطراف النزاع، فإن الورثة ينبغي أن يعملوا على الفور لتسوية هذا النزاع، هنا يحرصون على تقديم بعض القرابين وتتمثل في طائر صغير ينحر ويلقى على قبر الميت دلالة على أن الاستقرار قد حل وساد الأمن والسلام. ولعل القصيدة التي قدمها لنا جاك مندلسون للشاعر السنغالي الجامبي «بيراجو ديوب» ***Birago Diop*** تقدم لنا وصفاً رائعاً لوجهة نظر هؤلاء الوثنيين في أرواح أسلافهم، وكيف أن أرواح هؤلاء الموتى امتداد لحياتهم، حيث يلتقي الأحياء والموتى دوماً في اتصال دائم مستمر، وأنهم في حفيف الأشجار وخرير المياه وصوت المرأة وعويل الطفل... يقول الشاعر السنغالي:

استمع إلى الأشياء أكثر من الكائنات

استمع إلى خرير المياه.. استمع إلى الرياح

---

[1] انظر د. فاروق إسماعيل: الأنثروبولوجيا الثقافية، الجزء الثاني، 1984، ص 302.

استمع إلى الأحراش تنتحب.. إنه تنهد أسلافنا

هؤلاء الذين ماتوا لم يذهبوا أبداً

هم هناك في الظلال المتكاثفة

الموتى ليسوا تحت الأرض.. هم في حفيف الشجر

هم في الخشب الذي يئن.. في المياه التي تجري

في المياه المستقرة.. في الكوخ

هم في صدر المرأة.. هم في الطفل الذي ينوح

في النار المتوهجة

إن الموتى ليسوا تحت التراب

هم في النار التي تموت.. في الحشائش التي تبكي

هم في الغابة في المنزل.. إن الموتى غير ميتين[1].

وبعد فقد يتسنى لنا بعد هذا العرض أن نتناول خصائص عبادة الأسلاف:

أولاً- نحن بصدد قوى خفية غامضة لها سلطة مطلقة تقوم بدور وظيفي في عالم الأحياء خاصة بالنسبة لأولئك الذين ينتمون إلى جماعاتهم القرابية (العشيرة - القبيلة).

ثانياً- إن علاقة أرواح الأسلاف بذويهم قد تكون إيجابية (تستهدف خير ورفاهية الجماعة)، أو سلبية (تأديبية) وأياً كان الأمر فإن خير السلف وعطائه مؤكد من خلال الاستعطاف والاسترضاء وتقديم القرابين والنذور.

ثالثاً- يستمد كبار السن أو الزعماء الروحيين (فئة الكجرة) سلطتهم من علاقتهم الوثيقة بهؤلاء الأسلاف، بل تعتبرهم بعض الجماعات بمثابة الوسطاء لهم.

رابعاً- في عبادة الأسلاف لا يركز معتنقي هذه العبادة على كيف يعيش هؤلاء الموتى، وإنما على الطريقة التي يؤثر بها هؤلاء الأسلاف في حياة الأحياء.

---

[1] جاك مندلسون: الرب والله وجوجو: الأديان في أفريقيا المعاصرة، ترجمة: إبراهيم أسعد محمد، دار المعارف - القاهرة، ص 51.

خامساً- إن المعتقدات الوثنية لا تقدم حلولاً لمشكلة ما بعد الموت، ومن ثم فإن الغموض الذي يكتنف أفكارهم تلك يعطي الفرصة لازدهار عبادة الأسلاف هذه والدخول معها في علاقات أخذ وعطاء، ولعل هذه الفكرة ذاتها هي التي جعلت *Igor Kopytoff* في معرض حديثه عن الأسلاف في إفريقيا يذهب إلى أن عبادة الأسلاف إنما تشير إلى الافتقار النسبي لكوزموغرافيا (العلم الذي يستهدف وصف الكون وتركيبه) ما بعد الحياة، حيث يبدو عالم الأسلاف، ومن ثم يكون التركيز على ما يمكن أن يفعله هؤلاء الموتى تجاه الأحياء[1].

[1] د. فاروق إسماعيل: تأثير الإسلام على الوثنية، ص 86-87.

obeikandl.com